شارلمان وسياسة التحالف مع أعداء الأمويين في قرطبة
-العلاقات مع الخليفة هارون الرشيد أنموذجا-

الباحث: زكرياء أبوبكر دلباني
جامعة علي لونيسي / البليدة٢ – دولة الجزائر

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٢/٤
تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٤/١٤

الملخص:

يحفل التاريخ السياسي الإسلامي مشرقا ومغربا، بنماذج عديدة لمحاولات القوى الأوروبية اختراق الصف الإسلامي، عبر استغلال الصراعات والخلافات بين مكونات الأمة على السلطة والحكم في المنطقة. ومن بين النماذج التي تحدث عنها المؤرخون الغربيون وتجاهلتها المصادر العربية الإسلامية في هذا السياق، علاقة الصداقة والود التي ربطت العاهل الفرنجي شارلمان بالخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد في نهايات القرن الثاني للهجرة.

إن هذه الجزئية التاريخية ظلت تعاني من سكوت مطبق للمظان التاريخية العربية مشرقا ومغربا، في حين أشبعتها الحوليات المسيحية والعلمانية الأوروبية سردا وتفسيرا، فأطنبت في وصف الهدايا المتبادلة بين الزعيمين، واسترسلت في ذكر السفارات التي حملتها بين بغداد وإكس لاشابيل Aix la Chapelle، حتى تحولت بعض تفاصيل هذه العلاقة إلى أساطير متداولة لما دأبت عليه الكتابات الغربية من تصوير خيالي لأخبار الشرق عموما، خاصة في العصور القديمة و الوسطى.

إن الخلاف بين الدارسين المعاصرين حول إثبات هذه العلاقات أو نفيها من أساسها من جهة، وكذلك حول تفسير أسبابها وأهدافها إن أثبتوا وجودها من جهة أخرى، لحافز للجيل الجديد من الباحثين العرب والمسلمين من أجل إلقاء الضوء عليها من وجهة نظر "شرقية" إن جاز التعبير، لمحاولة تجاوز التفسيرات الأحادية لقضايا حضارتنا الإسلامية من طرف المدارس التاريخية الأوروبية، فإثبات وجود نوع من التحالف العباسي- الكارولنجي لتطويق الإمارة الأموية في الأندلس أمر تاريخي جلل، خصوصا في تلك الحقبة التي كانت الدولة الإسلامية فيها ما تزال في أوج قوتها، ما قد يوحي بتفسيرات جديدة حول أسباب الإنحسار المبكر للمد الإسلامي الفاتح خصوصا في أوروبا.

Charlemagne and his policy of alliance with the enemies of the Umayyads in Cordoba
-Relations with Caliph Haroon al Rashid as a model-

Researcher: Zakaria Abu Bakr Delbani
University of Ali Lounici / Blida 2 - Algeria

Abstract

The Islamic political history, both in the Mashrek and the Maghreb, is full of many examples of attempts by European powers to penetrate the Islamic bloc, by exploiting conflicts and disagreements between the entities of the Islamic world over control and governance in the region.Among the examples discussed by western historians and ignored by Arab-Islamic sources in this context, is the friendship and affection that linked the Frankish monarch Charlemagne to the famous Abbasid caliph Harun al Rashid at the end of the second century AH.

This historical element continued to be disregarded by historical sources across the Islamic world, while being thoroughly narrated and explained in Christian and secular European chronicles , that went to great lengths in describing the gifts exchanged between the two aforementioned leaders,and the voyages they were carried on, between Baghdad and Aix- la- chapelle, which made the tales of this relationship into common legends, as western writings have often depicted oriental events in a fantasizing manner , notably in ancient and medieval times.

The debate between contemporary scholars about the very existence of this relationship, and, if proven, about its origins and motivations, presents an incentive for the new generation of Arab Muslim researchers to try to shed light on the subject from an "oriental" point of view and to attempt to go beyond the unilateral interpretations of the issues of our Islamic civilization by different European schools of history, as proving the existence of an Abbasid-Carolingian alliance to encircle the Umayyad caliphate in the Iberian peninsula is a significant historical matters, especially during an era in which the Islamic empire was still at the height of its power, which may suggest new theories explaining the hasty decline of Islamic conquests, notably in Europe.

المقدمة

تعتبر السياسة التي انتهجها الملك و الإمبراطور الفرنجي شارلمان Charlemagne تجاه العالم الإسلامي (٧٦٨-٨١٤م/ ١٥١-١٩٩هـ)، واحدة من الصفحات الهامة في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية إبان العصور الوسطى. و تتجلى أهمية هذه السياسة التي تبناها هذا العاهل من خلال الدوافع السياسية و الأبعاد الدينية التي ما فتئت تحرك خيوطها، ذلك أنها تندرج ضمن تطلعاته إلى توسيع حدود مملكته الكارولنجية الناشئة من ناحيتها الجنوبية الغربية، و لا يتم ذلك إلا على حساب التواجد الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، ممثلا في الإمارة الأموية بالأندلس، و من جهة أخرى، مثلت سعيه الحثيث لمقارعة المسلمين بصفتهم أعداء للكنيسة، ما ساهم في منحه مكانة رفيعة في العالم الغربي المسيحي، فأضفت عليه المظان اللاتينية صورة "البطل المسيحي الكاثوليكي".

لكن الحملات العسكرية العديدة لشارلمان على الأندلس ابتداء من سنة ٧٧٨م/١٦١هـ و علاقته العدائية مع عبدالرحمن الداخل و أبنائه في قرطبة، قابلتها سياسة من نوع آخر انتهجها مع الخلافة العباسية في بغداد. و أقل ما يمكن وصف هذه السياسة به، هو أنها سياسة استمالة و محاولة كسب أصدقاء أقوياء من المسلمين أنفسهم. تشهد بذلك الحركية و النشاط الذي ميز العلاقات بين الدولتين، العباسية على عهد أشهر خلفائها هارون الرشيد و الكارولنجية على عهد أهم ملوكها شارلمان.

غير أن العائق الأكبر الذي يحول دون فهم مدى عمق و أهداف هذه العلاقات هو السكوت المريب للمصادر العربية الإسلامية الوسيطية عن تناولها و ذكرها، في حين نجد الإخباريين الفرنجة الأوائل يفصلون في ذكر أنباء السفارات المتبادلة بين الطرفين، و أنواع الهدايا الفخمة المرسلة، و يذكرون أسماء السفراء و تواريخ بعثاتهم، و يجزمون بأن هذه العلاقات سادها الإحترام و الود بل و الإعجاب المتبادل.

هذا المعطى، دفع العديد من المؤرخين الأوروبيين المحدثين إلى الجزم بوجود محور تحالف سياسي حقيقي أسموه بمحور "بغداد-اكس لاشابيل"، و أن أهداف هذا الحلف هي تطويق الوجود الأموي في الأندلس لصالح شارلمان الطامح في استردادها و خدمة لمطامع بني العباس في ضمها، بل و ذهبوا إلى أن التقارب الأموي مع الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية في نفس الفترة، يؤكد استنتاجهم هذا، فلا يخفى أن أباطرة بيزنطة لم يكونوا ينظرون بعين الرضى لتوسع شارلمان في أوروبا و حلفه التاريخي مع بابوات روما، الذي

ورثه عن أبيه بيبن القصير Pepin Le bref " " و جده شارل مارتل " Charles Martel".

و يبقى الإدعاء الأخطر من قبل الحوليات اللاتينية في هذه القضية، هو أن الخليفة العباسي هارون الرشيد قد منح لشارلمان في سنة ٨٠٧م حق حماية المسيحيين في الأراضي المقدسة بفلسطين من خلال إحدى السفارات التي أرسلها هذا الأخير إلى بغداد و على إثر مرورها بفلسطين و بمباركة بطريرك القدس، فهل يجد هذا الإدعاء سندا له على أرض الواقع أم هو مجرد خيال و تهيؤات من طرف كتاب أوروبيين تابعين للكنيسة في عصور الظلام الأوروبي، ثقافتهم ضحلة و لا يرقون لمصاف المؤرخين؟

على ضوء ما سبق، تسعى هذه الورقة البحثية الموجزة إلى استعراض ما ورد حول هذه الإشكالية التاريخية في بطون المصادر ، و بالتحديد اللاتينية منها، في صورة الحوليات الملكية لإينهارد "Eginhard" وحوليات راهب سان غال " Saint-Gall" ، مع إلقاء الضوء على أبرز الآراء و التفاسير التاريخية حول ما ورد فيها، طرحها مؤرخون معاصرون غربيون و عرب في دراساتهم، مع محاولة النقد و الترجيح للخروج بنتيجة تقترب ما أمكن من الحقيقة التاريخية، و ذلك مبتغى كل بحث علمي تاريخي.

١.المملكة الكارولنجية في عهد شارلمان (٧٦٨-٨١٤م) ...توسع عسكري كاسح وتحالف مصالح مع الكنيسة البابوية:

تولي شارلمان للحكم مناصفة مع أخيه ٧٦٨م ثم وحيدا ٧٧١م:

يعتبر الملك الفرنجي[١] بيبن القصير، المؤسس الحقيقي للدولة الكارولنجية في الغرب الأوروبي . فقد قام خلال فترة حكمه الممتدة بين سنتي ٧٤١ و ٧٦٨م، بالقضاء على جميع معارضيه و انقلب على الملكية الميروفنجية[٢] عام ٧٥١م بمباركة البابا[٣]، كما انتصر عسكريا في عدة جبهات، و منها الجبهة الجنوبية الغربية لغالة "Gaulle " التي استعاد فيها عدة مدن من أيدي المسلمين أهمها ناربونة "Narbonne" عام ٧٥٩م[٤]، و الجبهة الجنوبية الشرقية في إيطاليا التي أرغم فيها اللومبارديين "Lombards" (و هم من الجرمان مثل الفرنجة) على التخلي عن أطماعهم في أملاك البابوية و على رأسها مدينتا رافينا "Ravenne" و روما[٥]. ليترك عند وفاته سنة ٧٦٨م مملكة قوية لولديه شارل و كارلومان "Carloman" ، ستسمح للأول بالإنطلاق على أسس صلبة، و تحقيق إنجازات مكنت هذه العائلة من تبوأ مكانة هامة في أوروبا الوسيطية[٦].

و بعد ثلاثة سنوات من الحكم المشترك بين الأخوين وفقا للتقاليد الملكية الفرنجية، انفرد الأخ الأكبر شارل بالملك عام ٧٧١م[٧]، و هو نفسه الملقب بشارلمان أو شارل العظيم "Carolus Magnus" و الذي لا تتوفر معلومات كافية عن مولده و طفولته. و يعزو كاتب سيرة شارلمان، المؤرخ الفرنجي إينهارد هذا الغموض حول فترة شبابه لغياب كتابات في هذا الجانب[٨]، غير أنه بالإمكان ترجيح سنة مولده، فإذا سلمنا أن شارلمان كان في السادسة و العشرين أثناء تتويجه ملكا عام ٧٦٨م[٩]، فإنه يكون قد ولد عام ٧٤٢م تقريبا.

٢-٢- سياسة شارلمان التوسعية في الأندلس الأموية (٧٧٨-٨١٤م/١٦١-١٩٩هـ):

ناصب شارلمان الوجود الإسلامي في الأندلس العداء، و سار في ذلك على نهج أسلافه، فجده شارل مارتل نال شهرته و مباركة الكنيسة له بعد صده لتقدم الفتوحات الإسلامية نحو شمال غالة في موقعة بواتييه" Poitiers "عام ٧٣٢م/١١٤هـ[١٠] ، ووالده بيبين القصير قام باسترداد مدن مهمة جنوب غالة وعلى رأسها أربونة "Narbonne إخراج المسلمين منها نهائيا لينحسر تواجدهم إلى جنوب جبال البرت[١١] "Pyrennees" و يتخذوا موقعا دفاعيا بعدما كانوا منذ فتح الأندلس مبادرين بالهجوم. فصارت الحرب ضد المسلمين إرثا عائليا لم يحد عنه شارلمان قيد أنملة[١٢].

وعلى الرغم من بعد المسافة نحو الأندلس و العوائق الطبيعية المتمثلة في وعورة جبال البرت الشاهقة، و عداوة سكانها البشكنس"Basques" للوجود الأجنبي مهما كانت هويته، فقد توالت حملات الفرنجة العسكرية على شمال الأندلس، أبرزها تلك التي تزعمها العاهل الكارولنجي بنفسه سنة ٧٧٨م/١٦١هـ. و تكمن أهمية هذه الحملة في مشاركة شارلمان فيها محاطا بكبار قادته العسكريين، ما يدل على استهدافه تصفية الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية[١٣]، و منه فقد شكلت هذه الحملة محطة مفصلية في العلاقات العدائية بين الفرنجة و الأمويين على الرغم من أنها لم تحقق النتائج المرجوة منها بعد توقفها أمام أسوار سرقسطة، و تعرضها لنكسة عسكرية قاسية خلال رحلة رجوعها إلى غالة، إذ شن البشكنس هجوما كاسحا على مؤخرة الجيش الكارولنجي و أبادوها عن بكرة أبيها خلال عبورها بممر رونسفال Ronceveaux- أو باب الشرزى كما يعرف في المصادر الإسلامية-، و كان من بين قتلى الفرنجة، أحد قادة شارلمان و هو محافظ بريتانيBretagne الكونت رولان Roland[١٤]، الذي تحول مقتله إلى أسطورة في المخيال الشعبي الأوروبي و الفرنسي منه خصوصا[١٥].

هذا ولم تتوقف محاولات الكارولنجيين لتقويض أركان الحكم الإسلامي الأموي في الأندلس طيلة فترة حكم شارلمان، التي عاصر خلالها ثلاثة أمراء أمويين هم عبدالرحمن الداخل وابنه هشام الرضا وحفيده الحكم، ونجحت هذه الحملات العسكرية في إزعاج هؤلاء الأمراء واحتلال بعض مدن شمال شرق الأندلس كجرندة[١٦]" Girone" وبرشلونة "Barcelone" ، وإقامة خط دفاعي اتخذ أساسا لمنطقة عسكرية ثغرية (ماركية) تطورت فيما بعد لتشكل منطقة قطلونية "Catalogne" الحالية، و أدت دورا هاما في
إسناد الحركة الإسترادادية النصرانية الإسبانية فيما بعد، ناهيك عن استضافة اكس لاشابيل للمتمردين المسلمين في أقاليم الأندلس و دعمهم في محاولة لزعزعة الحكم المركزي في قرطبة[١٧].

لكن العداء المستحكم بين شارلمان و أمراء الأندلس المسلمين لم يكن يعني أنه انتهج سياسة المواجهة المفتوحة مع جميع القوى الموجودة في العالم الإسلامي في عصره. فعلى النقيض من جبهة الأندلس، ارتبط سيد الغرب الأوروبي حينها بعلاقات سلمية ودية مع خليفة بني العباس هارون الرشيد، وهي العلاقات التي أثارت جدلا واسعا بين المؤرخين.

٢.العلاقات الكارولنجية- العباسية في عهد شارلمان وهارون الرشيد

خلفيات العلاقة الودية بين بغداد وإكس لاشابيل (التقارب بين الملك بيبن القصير والخليفة أبي جعفر المنصور):

عاصر شارلمان الخليفة العباسي هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور. وحفظت الحوليات اللاتينية أخبارا عن سفارات متبادلة بينهما وعلاقات ودية للغاية، ما جعل العديد من المؤرخين يميلون إلى الإعتقاد بوجود تحالف عباسي-كارولنجي غرضه الإطاحة بالأمويين وهم ألد أعداء العباسيين. ولفهم دوافع اتجاه شارلمان نحو المشرق الإسلامي وخلفياته، وجب العودة إلى الوراء قليلا زمن والده الملك بيبن القصير، إذ ابتدأ التقارب الفرنجي-العباسي في عهده وعهد معاصره العباسي أبو جعفر المنصور جد الرشيد، أي أن شارلمان واصل نهج أبيه في التقرب من العباسيين،فقد أرسل بيبن في سنة ٧٦٥م/١٤٦هـ سفراء إلى العاصمة العباسية حديثة النشأة حينها بغداد بهدف الإنتقام من الأمويين، ومكثوا فبها ثلاث سنوات، ولما أكملوا مهمتهم عادوا إلى أوروبا و معهم مبعوثون من طرف المنصور الذي احتفى برسل بيبن وأكرمهم[١٨].

وإذا علمنا حالة الصراع على شرعية الخلافة بين أبي جعفر المنصور وعبدالرحمن بن معاوية الداخل الذي نجا بأعجوبة من المذابح التي طالت أمراء بني أمية في المشرق وأحيا ملكهم في أقصى الغرب عام ١٣٨هـ/٧٥٦م، لفهمنا الدوافع المحتملة لبعثة بيبن إلى المنصور، خصوصا وأن هذا الأخير كان لا يخفي حسرته البالغة على فقدان الأندلس، ولم يأل جهدا في تحريض ودعم الناقمين والطامعين في حكم الأندلس على الثورة[١٩]، فإذا لم تجمع عداوة الداخل بين بيبن والمنصور فما الذي سيجمعهما و بينهما آلاف الأميال؟

٣. السفارات المتبادلة في عهد شارلمان و هارون الرشيد:

البعثة الفرنجية إلى بغداد عام ٧٩٦-٧٩٧م/ ١٨١هـ:

أرسل شارلمان بعثة إلى بغداد بين سنتي ٧٩٦ و ٧٩٧م الموافق ل ١٨١هـ، و ضمت هذه السفارة ثلاثة أفراد، أحدهم يهودي يدعى إسحاق يبدو أنه كان مترجما، و الآخران فرنجيان هما على التوالي لانفريد Landfried وسيغيسموند Sigismond[٢٠]. و يعتقد بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين أن الهدف من البعثة هو الطلب من هارون الرشيد أن يتدخل لوضع حد لاستهداف الأقلية المسيحية في فلسطين و اضطهادها حسبهم، و يبسطون دليلا على ذلك، تزامن هذه البعثة الفرنجية مع تعرض دير القديس سابا في فلسطين للتخريب و الحرق مرتين، كما تم اغتيال ثمانية عشر راهبا و انسحب المهاجمون محملين بالأسلاب و المسروقات على ظهر الجمال التابعة للدير. و يضيف هؤلاء المؤرخون أن شارلمان قد تم لفت نظره إلى هذه الأحداث من طرف مستشاره ألكوين "Alcuin" المهتم بأخبار الأرض المقدسة، فالهدف من البعثة حسبهم كان دينيا لحماية الحجاج المسيحيين و الرهبان في فلسطين[٢١].

غير أن ذلك لا ينفي الغرض السياسي لهذه السفارة حسب باحثين آخرين، فمن الصعب تجاهل استفادة شارلمان من تقربه من الرشيد العباسي من حيث إضعاف الحكم الأموي بالأندلس، فالأمويون خصوم للفرنجة و العباسيين، كما أن الرشيد كان مثل أسلافه يرى بني أمية بشر منزلة، فبعد أن أطاحوا بملكهم في دمشق و المشرق الإسلامي عام ١٣٢هـ/٧٥٠م، صاروا يعتبرونهم و قد استقلوا بالأندلس بمثابة الخارجين على شرعية الخلافة[٢٢]. فمن المنطقي إذا، أن يعتقد هارون الرشيد أن استهداف شارلمان الدائم للأندلس، سيقدم له خدمة جليلة بتثبيط الأمويين عن تحقيق حلمهم الرئيسي، و هو السعي لاسترجاع المشرق عن طريق بلاد المغرب كخطوة أولى، حتى ما إذا بسطوا نفوذهم هناك، اشرأبت أعناقهم نحو الشرق، و هو ما كان يقض مضاجع بني العباس[٢٣].

كما أن العديد من المؤرخين الغربيين يربطون هذه النزاعات بين الدول في تلك الحقبة، ليخرجوا بتصور تاريخي لما يشبه صراع محاور سياسية كبرى، فيضعون المحور العباسي"الشرقي الإسلامي"-الكارولنجي"الغربي المسيحي"، في مواجهة المحور الأموي"الغربي الإسلامي"- البيزنطي"الشرقي المسيحي"[٢٤]. وقبل عرض هذه الآراء على مجهر النقد، وجب استكمال ما أوردته المصادر اللاتينية عن مرور هذه البعثة بفلسطين لما لها من رمزية دينية خاصة.

شارلمان ومسألة الحق في حماية الأرض المقدسة:

مرت البعثة الفرنجية نحو المشرق بالأراضي المقدسة في فلسطين، و قامت بأمر من شارلمان بتوزيع الصدقات و الأعطيات على الكنائس هناك، كما تم ربط علاقات مع بطريرك القدس "جورج" الذي أرسل عام ٧٩٩م، راهبين فلسطينيين إلى أوروبا برفقة مبعوث لشارلمان إلى فلسطين اسمه زكريا - و هو قس يعمل في قصر الملك- ، و قد توجه هؤلاء إلى روما التي دخلوها يوم ٢٣ ديسمبر ٨٠١م، خلال الأيام التي عرفت تنصيب شارلمان إمبراطورا من قبل البابا ليو الثالث Leo III. و قد سلم الراهبان للإمبراطور مفاتيح القبر المقدس عند المسيحيين، و الجلجلة، و مفاتيح المدينة المقدسة و جبل صهيون و معها راية، بالإضافة إلى عهد بمباركة الكنيسة في فلسطين، و كل ذلك يدل على المبايعة، ما عزز موقف شارلمان والبابا الذي قام بتنصيبه خصوصا أمام البيزنطيين الذي اعتبروا منح شارلمان لقب الإمبراطور -وهو من أصل جرماني بربري- سرقة و انتحالا لحقهم التاريخي في هذا المنصب[٢٥].

غير أن المصادر اللاتينية الكنسية تذهب بعيدا في هذه القضية، و تقحم فيها الخليفة هارون الرشيد، فقد جاء في حولية راهب سان غال أن الرشيد أقدم في سنة ٨٠٧م، على منح شارلمان حق حماية المسيحيين في الأراضي المقدسة التابعة للخلافة الإسلامية[٢٦]، و هذا ادعاء خطير يضرب في الصميم سيادة الدولة الإسلامية على أراضيها، و ينسف مفهوم الخلافة خصوصا في تلك الحقبة المبكرة التي اعتبرت العصر الذهبي للحضارة الإسلامية.

لكن ما يدفع للشك في مصداقية هذه الرواية الكنسية، هي أن الحوليات المذكورة تعج بالمجازفات و الخيال و الأخطاء التاريخية الفادحة، حيث يلاحظ محاولة الراهب الذي كتبها تصوير شارلمان بصورة البطل الخارق للعادة، كما ينسب له نفوذا و ملكا و تأثيرا لم يبلغه على أرض الواقع. ثم إنه يقع في نفس الخطأ الذي ارتكبه إينهارد - رغم الفارق بينهما في مستوى الكتابة لصالح هذا الأخير - ، حيث يصف هارون الرشيد بملك الفرس[٢٧]، فهو يتوهم أن الشرق يعني بالضرورة مملكة الأكاسرة الساسانيين التي كانت قد زالت من الوجود بعد

الفتح الإسلامي لها منذ أكثر من قرن و نصف من الزمن، ما يدل على عمق الهوة بين العالمين الإسلامي و الأوروبي آنذاك، و حالة الجهل العميق التي كانت تسود في أوساط النخبة الأوروبية دون الحديث عن العامة الكادحين، الغارقين في أمواج من الظلمات.

إن المنطق يقول أن خليفة مسلما قويا وذا سمعة انتشرت في الآفاق مثل هارون الرشيد، لا يعقل أن يقوم بخطوة كهذه، لا من الجانب الديني لحرمة هذا الإجراء في الإسلام- رغم أن المصالح السياسية قد تبرر ذلك - ، ولا من الجانب السياسي حيث عجزت ثورات وحروب عن زحزحة خلفاء بني العباس عن عروشهم، و قصرت عن أن تنتزع منهم بلدانا أقل أهمية من فلسطين، فكيف يتنازل أقوى خلفائهم على هذا القطر المقدس بالنسبة للديانات السماوية الثلاثة، لصالح عاهل نصراني يحكم دولة تبعد آلاف المراحل عن فلسطين نفسها؟[٢٨]

السفارة العباسية إلى الإمبراطورية الكارولنجية ٨٠١م/١٨٥هـ :

ونجد في حوليات إينهارد ذكر السفارة التي بعث بها هارون الرشيد إلى شارلمان في سنة ٨٠١م، محملة بهدايا فاخرة، إذ أعلم الإمبراطور الفرنجي بعد نزوله بمدينة بافيا Pavie الإيطالية، بقدوم مبعوثين عباسيين إلى ميناء بيزا Pise[٢٩]، فاستقبلهم بين فيرساي Verceil و إيفري Yvree، و كان أحدهما من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد، و الآخر من إفريقية أرسله إبراهيم بن الأغلب الموالي للعباسيين، و قد أبلغه المبعوثان بقرب وصول اليهودي إسحاق الذي كان قد أرسله إلى بغداد في سنة ٧٩٧م/١٨١م و معه هدايا ثمينة، من بينها فيل يدعى "أبا العباس"، لم يشاهد الفرنجة مثله قبلها. في حين أبلغا الإمبراطور بوفاةالمبعوثين الفرنجيين الآخرين لانفريد و سيغيسموند، فما كان منه إلا أن أرسل الموثق إركانبالد "Erchanbald" إلى ليغوريا[٣٠] "Ligurie" لتحضير استقبال الأسطول الحامل لهذه الهدايا. و لم يتأخر شارلمان في الرد على سفارة الرشيد بأخرى مماثلة تحمل هدايا و تحفا أيضا، و قد عاد أحد رسله المسمى راتبرت Ratbert إلى أوروبا عام ٨٠٧م.[٣١]

٤.فرضية التحالف العباسي-الكارولنجي ضد الأمويين بالأندلس في ميزان النقد التاريخي (بين المصلحة المشتركة والعلاقات العادية والإختلاق الأسطوري) :

إن حقيقة وجود تحالف سياسي بين العباسيين و الكارولنجيين لاستهداف إمارة بني أمية بالأندلس و بيزنطة، قد شكل موضوع جدل تاريخي بين الباحثين، فمن المحتمل أن الصراع بين العباسيين و البيزنطيين في المشرق قد أوحى لهارون الرشيد بفكرة ضرب نفوذهم الديني على نصارى المشرق وهم الأرثوذكس، عن طريق استعمال قوة نصرانية أخرى، و هي

شخصية شارلمان بصفته حاميا للمسيحية – و إن كان كاثوليكيا – ، فيضرب الرشيد عصفورين بحجر واحد، إذ يفك الإرتباط الروحي لرعاياه المسيحيين بالإمبراطورية البيزنطية، بحيث لا يشكل تواصلهم الرمزي مع شارلمان خطرا عليه للبعد الجغرافي الكبير بينهم، كما لا يمكن إنكار أن الرشيد أو أي خليفة عباسي آخر مكانه، كان يرغب في ضم الأندلس إلى ملكه عبر القضاء على دولة بني أمية فيها[٣٢].

أما شارلمان، فقد كان على عداء مستحكم مع الأمراء الأمويين خصوصا هشام الرضا و ابنه الحكم الربضي من بعده، لذا فإن محاولة تطويقهم عبر كسب حليف إسلامي آخر أمر غير مستبعد، كما أنه كان على خلاف مع البيزنطيين حول شرعية تنصيبه إمبراطورا، فاستعماله للعباسيين بغرض تهديد مصالح القسطنطينية فرضية غير مستهجنة أيضا من الناحية السياسية، دون استبعاد ما تم ذكره آنفا عن رغبته في حماية نصارى المشرق كملك ذي عاطفة دينية جياشة[٣٣].

لكن من الأهمية بمكان، بسط رأي مخالف لفريق آخر من المؤرخين الذين ينفون قيام أي نوع من أنواع التحالف السياسي بين هارون الرشيد و شارلمان قصد ضرب الأندلس، فهذا بوكفيل"Pouqueville " يرى انعدام أية علاقات تجارية أو سياسية بينهما، و يعلل رأيه بالصمت التام للمظان العربية الإسلامية عن هذا الموضوع، بينما يرى بارتولد" Barthold" أنه لا يمكن إنكار وجودمسافرين فرنجة نحو الشرق في مطلع القرن التاسع الميلادي في ظل تناول المصادر اللاتينية الفرنجية الرسمية لها، لكنه يجزم أن هؤلاء المسافرين لم يكلفوا بمهام رسمية قطُ[٣٤].

بينما يبسط محمد سهيل طقوش مجموعة حقائق تاريخية تنسف إمكانية قيام تحالف سياسي بين الطرفين، إذ يرى أن هذه السفارات تزامنت مع مفاوضات و تواصل بين شارلمان و إيرينا Irene إمبراطورة بيزنطة (٧٨٠-٨٠٢م)، و استمرت هذه الرغبة في حلحلة المشاكل بين الطرفين في عهد نقفور Nicephore و ميخائيل الأول أيضا.

ويضيف أن الرشيد قد حقق انتصارات مشهودة على البيزنطيين في تلك الفترة الزمنية، فلم يكن في حاجة إلى دعم شارلمان على هذا الصعيد. كما أن تسليم مفاتيح كنيسة القيامة والقدس والراية من قبل البطريرك إلى الفرنجة، لا يعدو كونه من باب الرمزية والدعاء والبركة حسبه، ولا معنى له من الناحية السياسية[٣٥].

وإذا أضفنا لما سبق، تخلي الرشيد عن سلطته المباشرة على إفريقية لصالح واليه عليها إبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م، وهي أقرب إلى دار الخلافة من الأندلس وأهم، وكذلك سكوت جل المصادر

الإسلامية الوسيطية عن أخبار تحالف كهذا، فإن الخلاصة حسب هذا الفريق من الباحثين، هي أن هذا الحلف هو مجرد أسطورة اخترعها و تولى كبرها الراهب صاحب حوليات سان غال كما سبقت الإشارة إليه[٣٦].

و في ظل تباين آراء الفريقين حول هذه القضية التاريخية، فإن الثابت أن هذا التحالف إن عقد فعلا، فإن تبعاته و تأثيره على أرض الواقع منعدم تماما، و لم يهدد إطلاقا مصير الدولة الأموية في الأندلس، التي قاومت بصلابة مشاريع شارلمان الصليبية، و عاشت أكثر من قرنين بعده، ما يرجح كون تلك العلاقات الودية مجرد زيارات مجاملة و جس نبض و تعارف بين كيانين مختلفين، شرقي و غربي، يجهلان بعضهما البعض و لكل واحد منهما دوافع مضمرة لم تبح بها بطون المصادر بعد.

الخاتمة:

يستنتج مما سبق، أن السياسة العدائية التوسعية التي انتهجها شارلمان تجاه الأندلس الأموية طوال فترة حكمه، قابلتها سياسة ودية سلمية تجاه الخلافة العباسية في المشرق، تجلى ذلك من خلال السفارات العديدة المتبادلة بينه وبين الخليفة هارون الرشيد، والتي فصلت في أخبارها الحوليات اللاتينية بكثير من الخيال والمبالغة، ما يدفع المؤرخ إلى الشك في الكثير مما ورد فيها والتساؤل عن دوافعها دون إنكار وجودها بالمرة.

مثلت المصالح السياسية المشتركة بين العباسيين والكارولنجيين و بالتحديد عداؤهم للأمويين نقطة التقاء و تقارب، لاحت بوادرها منذ عهد أبي جعفر المنصور و بيبن القصير و تسارعت حيثياتها في عهد هارون الرشيد و شارلمان.

زاد التقارب بين أمراء قرطبة الأمويين و أباطرة بيزنطة من اعتقاد الباحثين بأن تحالفات سياسية حقيقية قامت في النصف الثاني من القرن الثاني و النصف الأول من القرن الثالث الهجري بين القوى الإسلامية و المسيحية، فبغداد تحالفت مع إكس لاشابيل في مواجهة حلف قرطبة مع القسطنطينية.

لم يسجل التاريخ تطور هذه التحالفات إلى عمل عسكري مشترك، فاقتصر الأمر على إبداء حسن النوايا و تبادل الزيارات و السفارات المحملة بالهدايا بين العواصم المختلفة.

و في ظل استمرار الخلاف بين الدارسين المعاصرين حول أهداف هذه العلاقة و إمكانية تخطيطها لاستهداف الدولة الأموية في الأندلس، فإن غيابها التام في التراث التاريخي الإسلامي حتى الآن، لا يسمح بمقارنته مع ما ورد عند كتاب الفرنجة و بالتالي إصدار حكم تاريخي صريح بشأنها، و لعل المخزون الهائل من المخطوطات الإسلامية المتناثرة في متاحف و مكتبات العالم، يحتوي على إجابات تقربنا أكثر من الحقيقة التاريخية المنشودة .

الهوامش

[١] الفرنجة Francs هم شعب جرماني الأصل . ظهر إسم الفرنجة لأول مرة في عام ٢٤١م و كلمة فرنجي تعني حر. ينقسم الفرنجة إلى ثلاث قبائل : الساليون أي البحريون ، و الريبوير المقيمون قرب الأنهار، و الشاماف ،و قد اندمجوا تدريجيا في العالم الروماني و خدموا الإمبراطورية. كانت لهم عدة فروع قبل توحيدها من طرف الملك كلوفيس في أواخر القرن ٦م.

أنظر: نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، دار الفكر، د.ط.، دمشق/سورية،١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص.٧٥؛ وأنظر:

François Olivier Touati, Vocabulaire historique du moyen age ,ed. La boutique de l'histoire, Paris/France, 1995, p.89.

[٢] نسبة للملك الفرنجي ميروفه Merovee الذي قاتل البرابرة الهون، ومن المرجح أنه جد كلوفيس (٤٦٦-٥١١م) صانع مجد الفرنجة ومعتنق المسيحية. أنظر: حاطوم، المرجع السابق، ص٧٦-٨٠

Gregoire de Tours, Histoire des Francs, Tr :M. Guizot, collection des memoires relatifs a l' histoire de France,j.l.j. Briere Libraire,Paris/France,1823,p.68.

[٣] أنظر:

Eginhard,Les annales Royales, Dans : Francois Guizot, Collection des memoires relatifs ..٤,p l'histoire de France,J.L .J. Briere Libraire, Paris/France,1824

[٤] حاطوم، المرجع السابق،ص. ٩٨ ؛ و أنظر:

Karl Ferdinand Werner, Les origines Histoire France, Ed. Fayard, Paris/France,1984,p٤١٧ .

[5] أنظر: Eginhard, op.cit., pp. 5-6.

Louis Halphen, Charlemagne et l' empire Carolingien, Ed.,Albin Michel,Paris/France, 1995,p.55. [6] أنظر:

[7] أنظر: Eginhard, op.cit., pp. 15-16.

[٨] إينهارد، سيرة شارلمان، تر.عادل زيتون، ط.١، دار حسان، دمشق/ سورية، ١٤١٠هـ/١٩٨٣م، ص.٥٦.

[٩] المصدر نفسه، ص.٥٣ حاشية٣.

[١٠] جرت المعركة في سهل واسع بين مدينتي تور وبواتييه في شهر رمضان، وكان قائد المسلمين فيها عبد الرحمن الغافقي، وتعرف في المظان الإسلامية بمعركة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد من المسلمين وعلى رأسهم الغافقي. أنظر: عبد المجيد نعنعي، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت/لبنان، ١٩٨٦، ص ١٠٣.

و يعتقد المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون Edward Gibbon أنه لولا النصر في بواتييه، لكانت أوروبا اليوم إسلامية، و لكان القرآن يدرس في جامعات أوروبا. أنظر:

Histoire de la decadence et de la chute de l' empire Romain, T.9,Tr.F.Guizot, Ledentu Libraire, Paris/France, 1828,p.304.

في حين يرد عليه المؤرخ العراقي عبدالرحمن علي الحجي بقوله أن أوروبا هي التي خسرت قرونا من الحضارة والإزدهار بسبب معركة بلاط الشهداء، والدليل هو فضل الإسلام على شبه الجزيرة الأيبيرية وتقدمها وتحضرها. أنظر: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة(٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٠٣١م)،ط.٢،دار القلم،دمشق/سورية،١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص ص.٢٠٢-٢٠٣.

[١١] جبال وعرة تشكل حاجزا طبيعيا بين الأندلس و بلاد غالة، تمتد من البحر المجاور لطرطوشة (المتوسط) إلى البحر الغربي بين أشبونة و جليقية (المحيط الأطلسي). أنظر: أبو عبيد البكري، المسالك و الممالك، تح. أدريان فان ليوفن و أندري فيري، د.ط.، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ١٩٩٢م، ص.٨٩٥.

Robert Folz, Le couronnement imperial de Charlemagne,Ed. Gallimard, 1964, p.60. [12]نعنعي،المرجع السابق،ص،١٩٧و بعدها؛:

[١٣] إيفاريست ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١-١٠٣١م)، تر. عبدالرؤوف البمبي و آخرون، ط.٣، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة/مصر، ٢٠٠٠م، ص. ١١٨.

[14] أنظر: L' Astronome, La vie de Louis le debonnaire, dans : Charles De la Ronciere et autres, L' Europe au moyen age documents expliques,Armand Colin, Paris/France,1969,pp.159-160 ; Eginhard, La vie de Charlemagne, dans : Francois Guizot, collection des memoires relatifs a l' histoire de France,J.L.J.,Briere Libraire, Paris/ France,1824, p.133.

[١٥] محمد عبدالله عنان، دار الإسلام في الأندلس العصر الأول القسم الأول من الفتح إلى بداية عهد الناصر،ط.٤،مكتبة الخانجي،القاهرة/مصر،١٤١٧/١٩٩٧م، ص ص.١٨١-١٨٢.

[١٦] من مدن بلاد غشكونية المجاورة لجبال البرتات، و هي من المدن الساحلية.

أنظر: أبو عبدالله الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج.١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة/مصر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ص. ٥٨٣، ٧٣٥.

[١٧] منى حسن محمود، المسلمون في الأندلس و علاقتهم بالفرنجة(٩٢-٢٠٦هـ/٧١٤-٨١٥م)، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة/مصر، ١٩٨٦م،ص.١٩٧ ؛ و أنظر: Halphen,op.cit.,pp.84-85.

[١٨] محمود، المرجع السابق، ص.١٩٩.

[١٩] اشتهر المنصور بمقولته عن عبدالرحمن الداخل: " الحمد لله الذي جعل البحر بيننا و بين هذا الشيطان."، و ذلك لما بعث إليه الداخل برأس العلاء بن مغيث الجذامي الذي أعلن ولاءه للعباسيين و ثار على بني أمية بالأندلس . أنظر :

أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس و المغرب، مج.٠٢، تح.بشار عواد معروف و محمود بشار عواد، ط.٠١، دار الغرب الإسلامي،تونس، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص ص. ٦٠-٦١.

[20] أنظر: Eginhard, Les annales, p.51.

[21] أنظر: Folz,op.cit.,pp.180-181 ; Arthur Kleinclausz,(La legende du protectorat de Charlemagne sur la terre sainte), « Syria »,Revue d' art oriental et d' archeologie ,Haut commissariat de France en Syrie,T.7,1925,p.215.

[٢٢] محمد الخضري بك، الدولة العباسية، ط.١، المختار للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص.١٢٩؛ محمود، المرجع السابق، ص. ١٩٩.

[٢٣] محمود، نفسه.

[٢٤] محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية ،ط.٧، دار النفائس، بيروت/لبنان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص.١٠٥.

[25] انظر: Folz, op.cit., pp.180-181.

[26] أنظر: Moine de Saint-Gall , Des faits et gestes de Charles Le grand,Dans :Guizot,op.cit.,p.232 sqq.

[27] أنظر: Idem.

[28] أنظر: Kleinclausz, op.cit., pp.220-221.

[٢٩] يقع في إقليم توسكانيا الإيطالية. أنظر: Le Grand Larousse illustre 2018, Paris/France,p.1799.

[٣٠] تقع شمال إيطاليا بمحاذاة خليج جنوة Genes. أنظر : Ibid, p.1658.

[31] أنظر: Eginhard, Les annales, pp.51-57.

[٣٢] طقوش، المرجع السابق، ص.١٠٧.

[٣٣] المرجع نفسه، ص ص.١٠٩- ١١٠.

[٣٤] أنظر: Kleinclausz, op.cit., pp.211-212.

[٣٥] المرجع السابق، ص.١٠٩.

[٣٦] طقوش، المرجع السابق، ص ص. ١٠٩-١١٠.

المصادر والمراجع

المصادر اللاتينية المترجمة إلى الفرنسية:

1. Astronome, La vie de Louis le debonnaire, Dans: De la Ronciere (Charles) et autres, L' Europe au moyen age Documents expliques, Armand Colin, Paris/France,1969.
2. Eginhard, La vie de Charlemagne, Dans: Guizot (Francois), collection des memoires relatifs a l' histoire de France, j.l.j.Briere Libraire, Paris/France,1824.
3. Eginhard , Les Annales Royales, Dans : Guizot (Francois), collection des memoires relatifs a l' histoire de France, j.l.j.Briere Libraire, Paris/France,1824.
4. Gregoire de Tours, Histoire des Francs,Tr :M.Guizot,coolection des memoires relatifs a l' histoire de France,j.l.j. Briere Libraire,Paris/France,1823.
5. Moine de Saint-Gall, Des faits et gestes de Charles Le grand roi des Francs et empereur, Dans : Guizot (Francois), collection des memoires relatifs a l' histoire de France, j.l.j.Briere Libraire, Paris/France,1824.

المصادر اللاتينية المترجمة إلى العربية

١. إينهارد، سيرة شارلمان، تر.عادل زيتون، ط.١، دار حسان، دمشق/ سورية، ١٤١٠هـ/١٩٨٣م .

مجلة دراسات تاريخية
Journal of Historical Studies

المصادر العربية:

١. الإدريسي (أبوعبدالله الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج.١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة/مصر، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٢. البكري (أبو عبيد)، المسالك و الممالك، تح. أدريان فان ليوفن و أندري فيري، د.ط.، دار الغرب الإسلامي، بيروت/لبنان، ١٩٩٢م.
٣. ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد) ، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس و المغرب، مج.٠٢، تح.بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، ط.٠١، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

المراجع:

- اللغة الأجنبية:

1. Folz,(Robert), Le couronnement imperial de Charlemagne, Ed. Gallimard, 1964.
2. Gibbon,(Edward), Histoire de la decadence et de la chute de l' empire Romain, T.9,Tr.F.Guizot, Ledentu Libraire, Paris/France, 1828.
3. Le Grand Larousse illustre 2018, Paris/ France.
4. Halphen, (Louis), Charlemagne et l' empire Carolingien, Ed.,Albin Michel,Paris/France, 1995.
5. Kleinclausz, (Arthur) ,(La legende du protectorat de Charlemagne sur la terre sainte), « Syria »,Revue d' art oriental et d' archeologie ,Haut commissariat de France en Syrie,T.7,1925.
6. Touati, (Francois Olivier), Vocabulaire historique du moyen age, ed.La boutique de l'histoire,Paris/France,1995.
7. Werner, (Karl Ferdinand), Les origines Histoire France, Ed. Fayard, Paris/France,1984.

- اللغة العربية:

١. بروفنسال (إيفاريست ليفي)، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١-١٠٣١م)، تر. عبدالرؤوف البمبي و آخرون، ط.٣، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة/مصر، ٢٠٠٠م.

٢. حاطوم (نور الدين)، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة، دار الفكر، د.ط.، دمشق/سورية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣. الحجي (عبدالرحمن علي)، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة(٩٢-٨٩٧هـ/٧١١-١٠٣١م)، ط.٢، دار القلم، دمشق/سورية،١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

٤. الخضري بك، (محمد)، الدولة العباسية، ط.١، المختار للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٥. طقوش، (محمد سهيل)، تاريخ الدولة العباسية ،ط.٧، دار النفائس، بيروت/لبنان، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

٦. عنان، (محمد عبدالله)، دار الإسلام في الأندلس العصر الأول القسم الأول من الفتح إلى بداية عهد الناصر،ط.٤،مكتبة الخانجي، القاهرة/مصر،١٤١٧/١٩٩٧م.

٧. محمود، (منى حسن)، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢-٢٠٦هـ/٧١٤-٨١٥م)، د.ط، دار الفكر العربي، القاهرة/مصر، ١٩٨٦م.
٨. نعنعي، (عبدالمجيد)، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت/لبنان، ١٩٨٦م.

مجلة دراسات تاريخية
Journal of Historical Studies